الحسن البصرى

للاستاذ محمود البشبيشى المدرس بدار العلوم

هو شيخ التابعين وإمام المتكلمين ، العالم العامل الحكيم الورع ، الخطيب المفوه (أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى)

كان أبوه يسار من سبى ميسان «١» سباه المغيرة بن شعبة فى عهد عمر بن الخطاب ثم صار مولى لزيد بن ثابت الأنصارى وكانت أمه مولاة لأم المؤمنين (أم سلمة)

ولد الحسن عام ٢١ للهجرة فى بيت أم سلمة ، وفى رعايتها وجدبها تربى ، فكانت رضى الله عنها تحنو عليه : وتعلله إذا غابت عنه أمه .

نشأ فى بيت النبوة حيث الفصاحة والبلاغة ، وحيث الدين والحسب بين كرام الصحابة والتابعين ، فكان له (إلى طبعه المجيد) مدد فياض من هذه البيئة الصالحة .

فلم تتقدم به سنة حتى بدت عليه مخايل النبل والحكمة ، وجرى لسانه بما لم يعهد فى أمثاله من الحكم والقول السديد . بلغ كلامه السيدة عائشة رضى الله عنها فقالت : «ومن هذا الذى يقول كلام الصديقين» وما زال ينبه ذكره ، ويذيع فضله حتى صار إمام عصره ، وأصبح من سادة التابعين علماً وفضلاً ، وقصده الناس من أقطار البلاد يطلبون عنده العلم ، ويتلقون منه الرأى ويغترفون من معينه الحكمة

لقد أدرك الحسن تلك الأحداث الجسام « مقتل عثمان وحروب على وفتنة الخوارج » وشهد مآخذ القوم من الفرقة ، وسمع مقالات أهل البدع والأهواء ، وأدرك تحول الأمر إلى بنى أمية ، وعاش طويلاً فى عهدهم ، فكان طبيعياً لمثله (فى علمه ورأيه) أن يكون له رأى مسموع فى هذا المعترك ، وكان من مصلحة القوم أن يلتمسوا عنده ذلك الرأى ، ولقد كان هذا وذاك ، ولقد قام فى كليهما بما أوضح النهج وأقام الحجة ، وحاط الملة ، وقوى اليقين ؛ فما من أمر دينى أو سياسى إلا وله فيه رأى ، وما من رأى تسمع به (فى ذلك العصر) فى حكمة أو أدب أو عظة منسوبا إلى الحسن إلا وهو الحسن البصرى ، يقوم بهذا كله وهو مرعى الكرامة مصون العرض ، رفيع المكانة فى وقت تفاقمت فتنه ، وتعارضت آراؤه ونهض بالأمر فيه أمثال « زياد والحجاج » من جبابرة الولاة ، وكان أكثر العلماء يأخذون بالحذر ، إذ كانت حفوة العالم تطيح برأسه ، حتى ازداف كثير إلى أبواب الولاة ، يعتزون

(١) بلدة بأسفل البصرة

بهم أو يتقون بطشهم ؛ وما كان بالحسن حاجة إلى ذلك ، بل وجد له من عفته حاجبا ، ومن ورعه عاصما ، ومن حكمته وسداد رأيه حكمة ووقاية .

نعم كان عفيف النفس ، طاهر اللفظ ، مأمون العيب ، تمنعه سماحة نفسه ، ولين طبعه وبعد نظره أن يتكلم فى غير طائل ، أو يخوض مع الخائضين ، وهو إلى ذلك لا يضن بكلمة حق ، تهدىء الروع وتحسم الأمر وتذهب بحدة الخلاف وترد الحق إلى نصابه ، وتبصر الناس بما هو أجدى عليهم ، ثم هو — بعد — البحر الزاخر ، يفيض حكمة ويتدفق علماً ، كل أولئك فى تواضع وأناة ، وعفة وحياء وحصافة رأى ، فلا عجب إن عاش جليل القدر ، حتى لحق بمولاه مطمئن النفس ، موفور الكرامة .

سئل الحسن عن «الحجاج» فقال : « يتلو كتاب الله ويعظ وعظ الأبرار ، ويطعم الطعام ويؤثر الصدق ، ويبطش بطش الجبارين ! »

فقيل له : وما ترى فى القيام عليه ؟ قال « اتقوا الله وتوبوا يكفكم جوره ، واعلموا أن عند الله حجاجين كثيرا » تأمل كيف تخلص من الشرك بهذه الأجابة العفة الدقيقة ، وكيف بث كلمة الحق فى عبارة لينة صلبة .

ولما قدم (عمرو بن هبيرة) واليا على العراق أحضر (الحسن والشعبى) فقال لهما : إن أمير المؤمنين — يزيد بن عبد الملك — كتب إلى كتابا فى تنفيذه الهلكة فأخاف إن أطعته غضب الله ، وإن عصيته لم آمن سطوته ، فما ترياني ؟ فقال الحسن للشعبى : أجب الأمير يا أبا عمرو ، فرفق له فى القول ولحظ فى هوى (ابن هبيرة) ثم قال الوالى ما عندك يا أبا سعيد ؟ فقال (الحسن) أو ليس قد قال الشعبى ؟ قال ابن هبيرة : فما تقول أنت ؟ فقال: (أقول والله إنه يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله ، فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره فيخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، فلا يغنى عنك ابن عبد الملك شيئا . اتق الله أيها الأمير فأنك لا تأمن أن ينظر الله إليك — وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد — نظرة يمقتك بها فيغلق عنك باب الرحمة) .

أعرفت الآن حقيقة الرجل ؟ إنه يدفع الشعبى إلى الأجابة لا ضنا بكلمة الحق ، فقد صدع بها لما طلبت منه ، وإنما تخلصا من مواقف يتحرج أن يقفها ، تفورا من المآزق التى ما خلقت نفسه الهادئة لأمثالها ، وجنوحا إلى العاقبة التى يؤثرها على غيرها . ثم هو بعد ذلك عند ظن الحق يرفع رايته ويعلى كلمته .

هذه سبيل الرجل : دعاه إلى الحق فى غير جلبة ، وتحرر من الشر فى غير ضجة . كل ذلك فى سداد رأى ، ورجاحة عقل ، وحسن بيان ، وغزارة علم ، وعزوف عما يبتهالك عليه

الناس من الزلفى إلى غير الله ، ولعل هذا من أسباب زهده وانقباضه . قال عبد الواحد بن زيد : وقد سأله ناس عن الحسن (رحم الله أبا سعيد ، كان والله إذا أقبل كأنه رجع من دفن حميمه ، وإذا أدبر كأن النار فوق رأسه ، وإذا جلس كأنه أسير قدم لضرب عنقه ، وإذا أصبح كأنه جاء من الآخرة ، وإذا أمسى كأنه مريض أضناه السقم) . وبعد فإن قوما أخذوا بزهد (الحسن) وبالغوا فيه حتى عدوه من أوائل المتصوفة فى الأسلام .

وقد يكون لهذا الكلام وجه حق إذا أرادوا بالتصوف (التعلق بالخالق والزهد فيما بأيدى الخلائق) فذلك شأن الحسن وشأن غيره من السابقين كالخليفة العادل (عمر بن الخطاب) .

أما التصوف الذى تشوبه الشوائب كالركون إلى الخمول فما كان الحسن منه فى شىء ، وما كان يوما ما من دعاته ، وما عرفه المسلمون إلا منذ خالطهم الأعاجم ، كما قرر ذلك ابن خلدون فى مقدمته .

ما كان الحسن فى أوقات زهده بالذى يكره العمل أو يزهده . وإنما دعته طبيعته وعفته إلى ذلك الزهد ، فاعتزل الناس أحيانا ، ولكنه أطال مخالطتهم وتصدر لتعليمهم ، وتخرج على يديه فى حلقة درسه بالبصرة . أمثال قتادة الأعمى وواصل بن عطاء وغيرهما من أهل الفقه وأرباب الآراء وما أكثرهم ! وما كان لرجل اجتنب الناس واعتزلهم أن يثير ذلك الشر أو يخلف ذلك الجيل من العلماء وإنما هى أيام وساعات كان يخلو فيها إلى ربه ، ويجد فيها راحة لنفسه ، دخل عليه (الشعبى) يوما من أيام اعتزاله فوجده مستقبل القبلة وهو يقول : (يا ابن آدم لم تكن فكنت ، وسألت فأعطيت ، وسئلت فبخلت ، بئس والله — ويحك — ماصنعت !) ثم سلم عليه ووقف ساعة فما التفت إليه ، ولا شعر به ؛ فخرج من عنده وهو يقول : (الرجل والله فى غير ما نحن فيه) ومع ما عرف عنه من من النسك والزهد لا يدع التجمل ولا يمتنع من لبس جيد الثياب ويختار المتعطل من الناس .

أما بلاغته فحسبك دليلا عليها شهادة الحجاج حين سئل : من أخطب العرب ؟ فقال : صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة يريد بذلك الحسن البصرى وما أكثر روائعه (٢) التى نثبت هنا بعضها فنقول :

نعى إليه داود الطائى فقال : (غفر الله له وأيم الله لقد كان كالعافية لا يعرف قدرها إلا عند فقدها) وكان يقول : (ابن آدم لن تجمع إيمانا وخيانة . كيف تكون مؤمنا ولا يأمنك جارك ؟ ابن آدم ! إنك لا تستحق حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب فيك فأصلح

(٢) تجد كثيرا منها فى (رسالة الحسن البصرى) لابن الجوزى

عيب نفسك قبل نظرك فى عيب الناس ، فأنك لن تصلح من نفسك عيبا إلا وجدت عيبا آخر أنت أولى بإصلاحه) ويقول : (ليس حسن الجوار كف الأذى ، وإنما حسن الجوار احتمال الأذى) ويقول : إن الحمد فى دين المسلم أسرع من الآكلة (٣) فى جسده . ويقول : « إنا والله ما خلقنا للفناء ، ولكنا خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار » .

وقد تدرك مما قرأت له رأيه فى صلة العمل بالإيمان ، فهو بلا ريب يرى العمل الصالح من كمال الإيمان ، ويرى العمل السيء مدعاة لنقص الإيمان ، ويحتج فى خلال قوله بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه) وقوله : (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) وهو إنما يريد الدين الكامل

ذلك رأيه فى صلة العمل بالإيمان ، فهو لم يؤخر العمل عن الاعتقاد كما قالت الفئة (المرجئة) ولم يقل (لا يضر مع الإيمان شيء) مثلما قالوا ، كما انه لا يكفر العصاة كما قالت (الخوارج) ولم يجعلهم فى منزلة بين المنزلتين (٤) كما قالت المعتزلة ، ولم يخل العبد من التبعة كما قالت (الجبرية) ولقد أدرك الحسن كل هذه الفروق ، فناضلهم بالحجة ، وأقام معالم الحق وما زال كذلك حتى لقى ربه . وكان من تلاميذه واصل بن العطاء تخرج عليه وتثقف بعلمه ثم اعتزله وجلس فى مساجد البصرة يلقن آراءه ، فكان رأس المعتزلة لاختلافه مع شيخه الحسن فى مرتكب الكبيرة ، فقال واصل إنه فى منزلة بين الإيمان والكفر وقال شيخه بل هو مؤمن فاسق ، فتمسك واصل برأيه فأمره الحسن باعتزال مجلسه فكان .

وقد ظل الحسن علما من أعلام البصرة ، مرموقا بعين الإجلال من جميع أهلها ، بل من جميع من سمع به حتى لقى ربه راضيا مرضيا ، وتسابق الناس إلى جنازته وشغلوا بها حتى عطلت فى مسجد البصرة فى صلاة العصر ، وذلك فى خلافة هشام بن عبدالملك سنة ١١٠ للهجرة

هذه خلاصة تاريخ الرجل العظيم ولولا ضيق المقام لأطنبنا فالأطناب فى سيرته ينفع العلم والفضيلة والدين ؟

---

(٣) النار (٤) الإيمان والكفر

محمود البشبيشي